ذات سحر قاهر[1]...

الاهداء :

الى سلمى فيلوس ...

قدم الربيع . وفاح في الجو أريج زهره وعطره . وأريج الحب أيضاً . كان صباحاً جميلاً وأحس هو في نفسه بجمال نفسه يعانقه جمال الكون ... لقد امتدت في أعماقه روحه سحابة من دخان ساحر غير منظور . دخان الجمال والاغراء والفتنة خرجت منه عن بقية العالم وأخذت تنمو وتنمو حتى غمرته في حنايا . فلم يعد يحس ولا يرى ولا يشعر الا جمالاً في جمال .

زال هذا الاحساس الطاغي كيانه الروحي وأحس كأن شيئاً خفياً في أعماقه يسرقه لأمر خطه القدر ، إن شعوراً طاغياً يعربد في عروقه حتى لتصرخ كل جارحة من جوارحه : لا أريد أن أرى إلا كل جميل ، كل فاتن ، كل مغر ... جنبني الآن أي منظر لا يفتن ! ولكن همس في أعماقه صوت ضعيف : والموعد ؟ موعد الصديق الذي جاء من أقصى الصعيد لأمر ذي بال ؟ صرخ إحساسه الطاغي محتقاً : قلت لك الجمال . الجمال . ولا شيء الآن غير الجمال... وجد نفسه يسير في شارع فؤاد حيث معرض الجمال الدائم الذي يعتقد كل يوم صباح مساء حيث لا تتخلف فادة من فادات القاهرة تعمر بفتنة من الفاتن عن الحضور لتعرض جمالها وفتنها على العبّاد والرعايا ... الرعايا المساكين الذين ينظرون صامتين ذاهلين أحياناً وسعربدين سُكارى من خمرة النشوة في بعض الأحايين !

كم قابله من صديق في طريقه فتخلص منه بشكل غير مهذب ، وكم اعترضه معترض بالمصافحة فأثار حنقه أي ثورة لم يستطع كبحها إلا بجهد شديد . ومع ذلك بدت في قطع الحديث فجأة والسير في طريقه بين دهشة الصديق وعجبه . ها هو ذا الآن في شارع فؤاد . تتنفس الصعداء من أعماق صدره وأحس بسعادة الغريب حين يرى أهله ومحبيه . ها هو ذا يرى نفسه وسط بحر مائج بالفتنة والاغراء موجاته الضاحكة المتناغية من العذارى والغيد

(١) من كتاب «القاهرة الساهرة» يطلب من لجنة التأليف والترجمة الحديثة ص.ب ١١٣٥ القاهرة

الحسان . . غيدٌ كأنهنّ في عيد . . أخذ يُسائل نفسه . . . تُرى هل رأى هارون الرشيد مثل هذا ؟ وهل صَعّد عمر بن أبي ربيعة بمثل هذه المقاعد ؟ بل ما يقرب من هذه المقاعد ؟ وهل في الوجود أبدع من هذا ؟ وخيّل فنّ بفكره الى الجنة ولكنه لم يستطع تصورها بأبدع مما يرى .

أخذ يلتهم بعينيه كل جميلة . هذه الفاتنة السمراء بقوامها الشهي وخطواتها الرشيقة المتغرزة كطي نافر . وتلك . . . ، يا للعيون السود المفعّمة ذات الهُدب المشرعة كسنان رمح قاتل ! وهذه الغادة المضيئة كالبدر وتلك الصغيرة الندية كتفاحة تُغري ، وذات الشفاه المختومة بالهب ! . . أنظر . . . يا لتغرغري اللؤلؤ الساحر ! آه لو أرشفه ! . . وفي وسط هذا الغمر الذي لا ينتهي من الجمال وكأنما يفيض من نبع الخلود ، كم ثارت برأسه من أمنيّات واهتملت بقلبه رغبة ، وأحرقت مروقه خطرة وكم تمنى لو كانت ذراعاه وظهره وحتى مؤخرة رأسه كلها عيوناً فلا تفوته لمحة من هذه الأسراب التي كأنما راعها في الخلد شيء فاندفعت من الأبواب متلاحقة كأطياف الأحلام السعيدة أو طيرة في اختيال كأنهنّ ربّات . . . وها هو ذا يحس طلة غريبة حين يلامس طرفاً من ثوب إحدى الجميلات العابرات أو حين يضطرها الزحام أحياناً للاحتكاك جسداً بجسد . ترى هل تشعر الجميلة بمثل هذه اللذة حين تلامسه ؟ وتخيل جوّاء تجيبه على سؤاله في ابتسامة ماكرة . أهي لا ؟ أهي نعم ؟ لا يدري . . وظلّ على هذه الحال وقتاً لا يدري مداه وظلّه لا يقف عند حد . ونهمه لا يهدأ بل يزداد وكأنما لاحدّ لها ولا نهاية بل إنه ليُحس فعلاً أن لاحد لها ولا نهاية ! وفي هذه اللحظة خطرت بفكره خاطرة : انني أنا نفسي سأنتهي فكيف يُبدع المنتهي ما لا حد له ولا نهاية ؟ أدهشته هذه الخاطرة فضحك من نفسه ضحكة عريضة . لقد أثرت فيه قراءات الفلسفة وها هو يفلسف في موقف لا يحتمل غير المتاع والتلذذ . ولكنه عاد يقول في نفسه وما موضع الغرابة ؟ ان سقراط لم ينشيء أبدع محاوراته إلاّ عن الجمال وفي منظر الجمال الإنساني بالذات ، وهل كانت أعياد باخوس وديونيزوس وأبولون إلاّ أعياد الجمال والمتاع والتلذذ ؟ وبينما هو في موقفه تداعبه هذه الأحاسيس وتحيطه أمواج الجمال المتدافعة من حوله وعن يمينه وعن شماله وهو يتنقّل في تنوقه لها بين تلذذ الحس ونعومة الروح . خارقاً في استمتاعه وكأنما يريد أن تقف حركة الزمن ودوران الكواكب وتنبض الوجود فلا تبق إلاّ هذه اللحظة خالدةً أبدية . . . في هذه اللحظة وعلى حين فجأة ، كما يلتمع ضوء البرق الخاطف في أحشاء الظلام المعتم ، رأى ما أذهله فأغمض عينيه عن كل ما حوله ولم يعد يرى سواها . . . . تلك التي برزت كالبرق الخاطف

تفتق الظلام وهي حائرة بجسدها المضيء ورأسها المرتفع وقوامها المنسرح المتقد، كأنما أفلت من يد المثال لساعته . لقد سُمِّر في مكانه وفقد كل قدرة على الحركة إلا أن يكون لها ظلاً . . . حيثما توجهت فهو لها تبع . لقد أحس بنفسه وقد استحال زهرة تلك الزهرة التي تعبد للشمس حيثما تحركت في السماء استقبلتها وجهاً لوجه ولكن العجب قد تملكه . . . إنه ليتذكر أنه رآها قبل الآن في مكان ما .. هي بعينها . نعم هي . رآها هناك في قاعة من قاعات متحف اللوفر عارية بجسدها ورأسها الشامخ وشعرها المعقوص هو بعينه ولونه وطيلته بل ورائحته ...

أفاق قليلاً من أثر الصدمة فرأى كل من حوله ينظر نحوها مأخوذاً بجمالها ولكنها تصرع الرائي بتيار دافق من الجلال والرهبة فلا يجرؤ ان يرفع النظر اليها كرة ثانية فيمضي عوقه الحسرة ... لم يبق إلا هو متمرداً ثائراً على هذا الجبروت . جبروت الجمال ورهبة الآلهة . لاشك إنها ربة من الأرباب هبطت الأرض حديثاً . فهتف في اعماق نفسه وقد صمم . حسناً وهل لنا إلا الصراع مع الرباب ؟ وانه ليتمنى لو يموت في المعركة أكثر مما يتمنى أن ينتصرا

وانعطفت فجأة الى منعطف يخلو من المارة تتأمل معروضات متجر من المتاجر . فاندفع وقد أحس باحساس يهز كيانه كله . أية قوة وأي سر قد انبثقا في كيانه ؟ انه ليحس في هذه اللحظة ان أعظم قوة في الوجود لا تستطيع أن تحول بينه وبين ما يريد ... وتقدم :

هو — لا تُسرفي في الظن . أنا رجل قد نذرت حياتي وروحي ودمي للجمال وأراك الآن ربة بعينها !

هي — (تنظر صامتة وقد ملتها الدهشة) .

هو — ان الآلهة تطرد من رحمتها من تناءى ولا راد لمشيئتها، فمشيئتها هي القدر . ولكنها لا ترفض أبداً قرباناً من القرابين .

هي — (بصوت خافت كأنما تناجي نفسها) لغة غريبة !

هو — وإنك لغريبة عن هذا العالم ومن يخاطبك بلغة الأرض فهو كافر !

لم تكن كلماته ألفاظاً بل سيالاً كهربائياً اندفع نحوها من بين شفتيه وقد أحس به حين لمس أطراف روحها فاهتزت في أعماقها هزة خفيفة ، ولكنها عادت وتماسكت

لم يدر ما قال بالضبط ولكنه شعر انه قال كلاماً مقبولاً ، فها هي ذي وقد بدت عليها مظاهر الارتياح والطمأنينة . وفي هذه اللحظة يشاء القدر إلا أن يتم اللوحة العجيبة . ربة وفنان، وعجوز من عجائز أثينا خرجت من المتجر وقد خدعها مظهر الثبات البادي على المتناجيين وظنتهما أليفين من زمن ، ولم تدر انهما وُلدا منذ لحظة : فتوجهت نحوه تطلب ثمناً تشعل

به سيجارة . كان هذا الحادث البسيط يعصف بالموقف كله من أساسه فقد لاحظ هو أنها انتهزت فرصة العجوز وحاولت الإفلات ، لأغلب الظن أنها كانت تحاوله من قبل ، ولكنها لم تستطع بمجاهدات العجوز لها كما يجد من الماء . وبالهام خفي كالغريق الذي يستجمع كل قوته في اللحظة الأخيرة ليتشبث بالحياة أسرع فأرخى السيال الكهربائي من بين شفتيه دافقاً حاراً متلاحقاً . فسُمِّرت في مكانها واضطرت أن تقف لتجيب في اضطراب مكتوم على تلك الأسئلة الحامية المصوبة في التسميم . في الوقت الذي كان هو قد أخرج علبة ثقابه وحاول في اضطراب ظاهر أن يشعل للعجوز لفافتها . ولكن عبثاً . وأحست العجوز بالجو الكهربي فانسحبت بسرعة دون أن تنال بغيتها وهكذا أنقذ الموقف ...

تبادلا الحديث بعض الوقت وأحسّ كل منهما بإحساس غريب . ان اجتماعهما قد خلق مجالاً مغناطيسياً يموج بقوى فوق طاقتهما احتمالها ، ولكنها ربطتهما الى الأبد كأنها القدر لا مفر من حكمه . انه هو نفسه يريد الآن أن يهرب إنه لا يحتمل كل هذا الاحساس الذي يسحق روحه . انه يريد أن يخلو الى نفسه ليسألها عن سر ما حدث وماذا دهاها ؟ . ولكنه في نفس الوقت شعر في أعماق قلبه أن هذا الاحساس الطاغي وهذه القوة الساحقة هي سر وجوده بل سر حياته قد تكشّف له اللحظة. وانه بدونها يغدو هيكلاً تافهاً... وافترقا على موعد .

عجباً . ما هو يسرد مفترقاً شارع فؤاد مسرعاً لا يلوي على شيء . ولا يُلقي نظرة على ما يموج به من المشاة ، تلك التي كانت منذ قليل تستولي على كل مشاعره وتثير فيه النهم والرغبة والظمأ الذي لا يرتوي . كيف تلاشى كل هذا ؟ بل كيف استحال في نظره عدماً . هباءً . بل لا شيء . لكأن يداً خفية قد أسدلت على كل تلك المناظر ستاراً من التفاهة ... ها هو يعبر الشارع مسرعاً ملتمساً في طريقه الأزقة والشوارع الخالية من المارة ومن الجميلات بالذات .. ان منظرهن أصبح يثير في نفسه المقت والاحتقار ... ها هو يعبر مسرعاً شارع قصر النيل فوقع نظره على حسناء سبق له أن رآها قبل اليوم فسحره جمالها وتمنى لو يراها مرة ثانية . ما بال حسنها الآن يثير في نفسه شعور الاشمئزاز والغثيان؟ وأسرع في طريقه ملتمساً الوحدة . وهناك حيث جلس بعيداً عن الناس واختلى بنفسه أخذ يستعيد صورتها وحديثها ومشيتها أو قل يستمتع بهذا كله فما يرد ذهنه فط لمحة من هذا كله . . .

أي سحر قاهر في تلك المرأة؟ أو تفعل حقاً امرأة كل هذا ؟ نعم وأكثر من هذا لو تراها ..

القاهرة محمد فهمي